العرب
الإثنين 2020/08/24
السنة 43 العدد 11799

«وصفة الراعي» لإنقاذ لبنان أم لتحصين أسوار الطائفة

نداء الحياد أعاد إنعاش الدور السياسي للبطريركية المارونيّة

"الحيـاد" وصفة قديمة جديدة أعاد طرحهـا البطريـرك الماروني مار بشـارة بطرس الراعـي في ظرفية حساسـة يمر بهـا لبنـان. ولئن اعتبرهـا البعـض امتـدادا لنداء المطارنة الذي وضع اللبنات الأولى لمرحلة سياسية جديدة في البلد، إلا أن ذلك لا يخفي وجود شـكوك في مدى قابلية هذا الطرح للحياة.

صابرة دوح
كاتبة تونسية

في قلب العاصفة.. ولا مجال للتراجع

لـم يرد الكاردينال مار بشـارة بطرس الراعي أن يشذ عن خطى أسلافه البطاركة الموارنة في ترك بصمة مؤثرة في لحظات لبنان الفارقة، فكان أن طرح مؤخرا وصفة قديمة جديدة تتمثل في "الحياد الناشط"، فـي بلـد يغـرق في أزمـات تـكاد تكون مستعصية في حضرة السلطة السياسية القائمة، المسنودة بقوة السلاح.

شُـبهت الخطوة التـي أقـدم عليها الكاردينـال مار بشـارة بطـرس الراعي بـ"نـداء المطارنة" الـذي أطلقه البطريرك الراحـل نصرالـلـه بطـرس صفيـر فـي سـبتمبر مـن العـام 2000، وإن اختلفت شخصية الرجلين وظروف كلا المرحلتين، حيـث كان اللبنانيـون منتشـين حينها بالانسـحاب الإسـرائيلي مـن الجنوب، يراودهم حلـم مماثل آلا وهو انسـحاب القوات السـورية (تحقق في العام 2005)، وكنس الطبقة السياسية الموالية وفرض السيادة اللبنانية.

اليـوم يواجه لبنان واقعا مختلفا في ظل أزمة مالية واقتصادية غير مسـبوقة منذ نهاية الحـرب الأهلية (1975/ 1990)، يحمّـل الشـارع اللبنانـي مسـؤوليتها للطبقة السياسية المهيمنة بسبب إهمالها وسوء تصرفها وفسادها، ومشاركة مكون بـارز فيها في معارك عبثيـة لفائدة قوى إقليميـة، ما أدى بلبنان في نهاية المطاف إلى عزلة عربية ودولية خانقة.

أزمة لبنان ازدادت وطأة مع الانفجار المـروع فـي الرابـع من أغسـطس الذي أتـى علـى "عـروس المتوسـط" بيروت، وتقـول التحقيقات الأوليـة إنه ناجم عن إهمال. وأدى هذا الانفجار الذي تسـببت فيـه أطنان من نتـرات الأمونيوم مخزنة بطرقة غير سـليمة في أحد مسـتودعات مرفأ بيروت منذ 2013، إلى مقتل أكثر من 182 شـخصا بينهم رعايا عرب وأجانب، وحوالـي 6000 جريـح بالإضافـة إلى 30 مفقـودا، فضـلا عـن تشـريد الآلاف من العائلات ودمار واسع في البنية التحتية.

الحياد ليس فكرة مستجدة، فسبق أن طرحت في عدة محطات لاسيما من القوى المسيحية، المسكونة بهاجس الخوف على الوجود

ولئن تداعت دول العالم لمساعدة لبنان في مصاب الانفجار بيد أن هذه المساعدة ظلت محسـوبة، حيث أن المجتمع الدولي يرفـض إلـى الآن اتخاذ خطـوات عملية في سـبيل إنقاذ البلد المنكوب اقتصاديا وماليا بضخ الأموال في شـرايينه ما لم يجر إصلاحات هيكلية وأيضا سياسـية في علاقة بكف يد حـزب الله عن التدخل في الصراعات الإقليمية.

الوصفة السحرية

على وقع الكوارث المتوالية على لبنان وجـد البطريرك الماروني نفسـه مضطرا إلـى تصويـب البوصلـة وقـرر مغادرة المنطقـة الرماديـة، التـي كان يتشـبث بجدرانها منذ الصفقة الرئاسية التي أتت بميشال عون رئيسا للجمهورية في العام 2016، عبـر النبش بين طيات تاريخ لبنان الحديث بحثا عن "وصفة سحرية" لإنقاذ البلد قبل فـوات الأوان فـكان أن اهتدى بمساعدة من المقربين إلى وصفة الحياد، في ظـل قناعته بأن جوهر مشـكلة لبنان هو تشابك الأزمات الداخليّة وتداخلها مع الحسابات الخارجية.

مقتـرح الراعي لم يكـن وليد انفجار بيـروت ولكـن مـا حـدث للمدينـة وما اسـتتبعها مـن تحـركات دوليـة مثيرة لاسيما دعوة الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكـرون مـن قلـب بيـروت إلـى ميثاق سياسي جديد شـكل حافزا قويا لتحويل هـذا المقترح من مجرد فكرة للتباحث بين الأفرقاء إلى مذكرة موجهة للأمم المتحدة طالب من خلالها البطريرك بـ"العمل على إعـادة تثبيت اسـتقلال لبنـان ووحدته، وتطبيـق القـرارات الدوليَّـة، وإعـلانِ حياده".

وقال الراعـي في مذكرتـه إن "حياد لبنـان هـو ضمـانُ وحدتـه وتموضعه التَّاريخـيّ، وبخاصَّـة في هـذه المرحلة المليئـة بالتَّغييـرات الجغرافيَّـة والدسـتوريّة. حيـادُ لبنـان هـو قوَّتـه وضمانـة اسـتقراره. فلبنـان الحياديُّ هـو القادر على المسـاهمة في اسـتقرار المنطقة أيضًا والدِّفاع عن حقوق الشُّعوب العربيَّة وقضيّة السَّـلام، وعلى لعب دور في نسج العلاقات السَّـليمة والآمنة بينَ بلدان الشَّـرق الأوسـط وأوروبـا بحكم موقعه على شاطئ المتوسِّط".

الراعي كما جانب كبير من المسيحيين لا يخفـون حذرهم مما يجـري بحثه في الغرف المغلقة بشأن لبنان وسط مخاوف من عملية مقايضة تقوم على تسليم حزب الله سـلاحَه فـي مقابل منحـه وطائفته الشـيعية صلاحيات سياسـية واسـعة، هذا الأمر بالنسـبة إلى المسـيحيين خط أحمر كونهم سـيكونون أبرز المتضررين منه لاسـيما وأنهم لطالما اشـتكوا من أن اتفـاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية كان مجحفا وأتـى على جزء من حقوقهم السياسية.

وفصّـل البطريـرك فـي مذكرته التي أعلنها في السـابع عشـر من أغسـطس الخطوط العريضة لنداء الحياد موضحا أن "البعد الأول فيها هو عدم دخول لبنان في تحالفات ومحاور وصراعات سياسية وحـروب إقليميـة ودوليـة، وامتناع أي دولة عن التدخل بشـؤونه أو اسـتخدام أراضيه لأغراض عسكرية".

و"البُعـد الثاني هو تعاطف لبنان مع قضايا حقوق الإنسـان وحريَّة الشُّعوب، ولاسـيَّما العربيَّة منها التي تُجمِع عليها دولهـا والأمم المتَّحـدة؛ وبذلـك يُواصل لبنان الدِفاع عن حق الشَّعب الفلسطينيِ والعمـلَ علـى إيجـاد حـل للَّاجئـين الفلسـطينيين لاسـيَّما أولئك الموجودين علَى أراضيه".

واعتبـر أن "البعـد الثالـث فيها هو تعزيز الدولـة اللبنانية لتكون دولة قويّة عسكرياً وبجيشها ومؤسساتها وقانونها وعدالتها ووحدتها الداخليّة، لكي تضمن أمنها الداخلي من جهة وتدافع عن نفسها بوجـه أيّ اعتداء بري أو بحري أو جوّي يأتيها سـواء من إسـرائيل أو من غيرها من جهة أخرى".

وأوضـح أن المذكـرة تبـدأ بتوضيح معنـى الحياد الناشـط، مشـيراً إلى أن الحيـاد يعني تعزيز الدولـة لتكون قوية بجيشها ومؤسسـاتها وقانونها لضمان الأمن الداخلي والدفاع عن الحدود. وأكد ضـرورة معالجـة ملفـات الحـدود على أسـاس خط الهدنة مع إسرائيل وسوريا، وأن لبنـان دولـة مسـاندة وليـس دولة مواجهة، مضيفا أن موضوع الحياد ليس من اختراعنا إنما هو واقع عاشـه لبنان منذ عام 1920 حتى أوائل السبعينات.

وحـذر الراعـي من أن لبنـان أصبح فـي دوامة حرب والمخـرج الوحيد له هو الحياد، وقـال "الخطيئـة الأصلية كانت باتفـاق القاهـرة (1969) الـذي أعطـى للاجئـين الفلسـطينيين الحـق بالقيـام بعمليات ضد إسـرائيل انطلاقا من لبنان وهنـا فلتـت المسـبحة". ودعا الأسـرة العربية والدولية إلى أن تتفهم الأسـباب الموجبـة التي تدفع غالبية اللبنانيين إلى اعتماد نظام الحياد الناشط.

فكرة قديمة جديدة

الحيـاد ليس فكـرة مسـتجدة على لبنـان، بل سـبق أن طرحـت في عدة محطات لاسـيما من القوى المسيحية، المسكونة بهاجس الحفاظ على الوجود في بيئة نافرة. وظهرت الفكرة في مطلع العشـرينات أي زمن الانتداب الفرنسي، حينما دعا عضو المجلس الإداري سليمان كنعان إلى تبني هذا الخيار في رد على دعوات إلى إقامة "سوريا الكبرى" التي تضم لبنان.

وخفت هذا الطرح بعد ذلك ليعود إلى البروز مجددا في خمسينات القرن الماضي حيث اقترح الرئيس الأسبق شارل الحلو حيادا قانونيا وفق النموذج السويسري، وكان من الأسباب الرئيسيّة التي دفعت الحلو إلى إحياء هذا الطرح القلق المتنامي من التحديات التي فرضتها حينها "الوحدة السورية المصرية".

الدعـوات إلـى الحياد لم تهـدأ من قبل المسـحيين ففـي كل منعرج حاسـم يتم التلويح بهـذه الورقة، لعـل إحـدى أبرز تلـك المحطـات حينما انخرط حـزب اللـه بعناصـره المدججة بالسـلاح فـي الحـرب السـورية فـي العـام 2013، فـي ظـل معارضـة داخلية ودولية.

وصدر فـي العام 2014 "إعلان بعبدا" الذي نـص في البنـد الثاني عشـر منه علـى ضرورة "تحييد لبنان عن سياسـة المحاور والصراعـات الإقليمية والدولية، وتجنيبه الانعكاسـات السلبية للتوترات والأزمات الإقليمية حرصًا على مصلحته العليا ووحدته الوطنية وسـلمه الأهلي، مـا عدا ما يتعلق بواجـب التزام قرارات الشـرعية الدولية والإجمـاع العربـي والقضيـة الفلسـطينية المحقـة بما في ذلـك حـق اللاجئـين الفلسـطينيين في العـودة إلـى أرضهـم وديارهـم وعـدم توطينهم".

عبداللطيف دريان:
ما قيمة الحياد إذا كان المسؤول لا يقيم وزنا للسيادة

ولم يلتـزم حزب اللـه بالإعلان كما كان متوقعـا حيـث اسـتمر فـي القتال فـي سـوريا بذريعـة أن انهيـار نظام الرئيس بشار الأسد سيشرّع الباب أمام اسـتهدافه في الداخـل اللبناني. ورغم ذلـك حرصـت الحكومـة اللبنانية التي تشـكلت في العام 2016 بناء على صفقة بين تيار المستقبل والتيار الوطني الحر –وكان حـزب الله غيـر بعيد عنها– على التأكيد في بيانهـا الوزاري على مفهوم النـأي بالنفـس، وتجدد الأمـر ذاته مع حكومـة حسـان ديـاب التي اسـتقالت الشـهر الجاري على خلفية احتجاجات واسعة.

هـذه العبـارة المجتـرة، أي النـأي بالنفـس، كانت مجرد إبراء ذمة مما يقوم به حزب اللـه في الخارج والذي للمفارقة هـو موجود في قلب السـلطة، بل هو من يدير خيوطها.

معوقات تحول دون حياد لبنان

اليـوم يريـد الراعي تصويـب هذا الوضـع وتبني حيـاد حقيقـي وفعلي بضمانة دولية، لكن الأمر ليس بالسهولة المطروحـة؛ ذلك أن هـذا الطرح يفترض التفافـا داخليـا هو غيـر موجود ليس فقط مـن جهة حزب الله الشـيعي الذي يعتبر أن الأمر يسـتهدفه بشـكل مباشر لأنه سيفرض عمليا انسحابه من جبهات القتـال الإقليمية وتسـليم سـلاحه، بل هنـاك تحفظات وتردد حتـى من القوى المقابلة.

وقال مفتـي الديار اللبنانية الشـيخ عبداللطيـف دريـان، فـي رسـالة وجههـا إلـى اللبنانيين في 19 أغسـطس الجـاري بمناسـبة حلول رأس السنة الهجرية "قد لا نحتاج إلى الحياد، إذا بنينـا دولة قوية وعادلة، ومعززة بالوحدة والتماسك الداخلي"، معتبرا أنـه "إذا بقينـا على انقسـامنا ولم نبن دولـة، فلـن يفيدنا أي حيـاد حتما، ولن نخرج من نفق التمزق والتشرذم والحقد والعداء".

وتسـاءل دريان "ما قيمـة الحياد إذا كان المسـؤول لا يقيم وزنا للسـيادة؟ ولا يقيم معنـى أو مضمونا للحكم الرشـيد والحريـة ولا يعـرف كيف يجنـب بلاده وشعبه التورط في الحروب والصراعات الإقليمية والدولية، فيسـتدرج الدول إلى سـاحاته، ويسـتجدي الـدول الأجنبية للتدخل في شؤونه؟".

الموقـف مـن الحيـاد يلقـى أيضا تحفظات من بعض القوى المسيحية على غرار التيار الوطني الحر الذي سبق وأن أعرب عـن رفضه ضمنيا لهـذا الخيار، وهذا ليـس بالغريـب؛ ذلـك أن الحزب الماروني يستظل أساسا بحزب الله، وإن تجريـد الأخير من مكامن قوته سـيعني نهايتـه، لكـن ذلـك لا يعنـي أن التيار البرتقالي الـذي يتزعمه وزير الخارجية السـابق وصهـر الرئيس عـون جبران باسـيل موافق على ما يجـري الحديث عنه بشـأن مقايضة بين سـلاح الحزب وزيـادة حصتـه فـي منظومـة الحكم، وسـبق أن صرح باسيل في 16 أغسطس الجـاري "لـن نقبـل تطوير النظـام إلا بالتفاهم".

إلى جانب غياب الإجماع في الداخل، هنـاك القـوى الإقليميـة والدولية التي لا تبدو فـي وارد التخلي عـن رهاناتها فـي هذا البلـد، وحتى الطبيعة نفسـها تعانـد مثـل هكذا طـرح، فموقـع لبنان الجغرافي يجعله في قلب الاسـتقطابات الخارجيـة، وبالتالي فـإن حظوظ نجاح الحيـاد في لبنـان تبقى محل شـك وقد يكون تشـبيهها بـ"نـداء المطارنة" الذي أطلقـه البطريرك الراحل صفير وأسـس لمرحلـة سياسـية جديدة ينطـوي على تسرع.

وقـال الراعـي فـي عظته الأحـد إنّ "وثيقة الحياد الناشـط"، ليست مشروعا خاصـا بالبطريـرك أو بالبطريركيـة المارونيّة، بل هي عودةٌ إلى صميم الكيان السياسـيّ اللبنانيّ، وليس هو موضوع وفاق بل يسـتلزم أولاً وفاقـا على الولاء للبنـان، قبل الوفاق علـى الحياد. فمتى حصل الوفـاق على الولاء للبنان، يصبح القبول بالحياد أمرًا بديهيًّا".

يبقى المؤكد أن "انتفاضة" الراعي بعـد غفوة أعادت إحياء دور بكركي السياسي.